■ الباب السابع

الأزعـــر

THE AUTOBIOGRAPHY OF

MALCOLM X

لا أستطيع أن أتذكر كل أساليب التحايل على الحياة التي مارستها في سنتي التاليتين في هارلم بعد أن انتهى فجأة ركوبي القطارات وبيع لفافات القنب للفرق الموسيقية المتجولة . في سرداب محطة جراند سنترال في نيويورك هنالك غرفة انتظار كبيرة يستعملها الزنوج من رجال السكة الحديد وكانت لعبة البوكر والبلاك جاك تدور فيها على مدار الساعة وأحياناً تصل المبالغ التي على المائدة خمسمائة دولار . أذكر مرة في لعبة البلاك جاك أن حاول طاه عجوز كان يوزع الورق أن يخدعني فشهرت مسدسي في وجهه .

في المرة التالية التي ذهبت فيها للعب حدثتني نفسي أن أضع مسدسي تحت حزامي في مؤخرة الظهر . وصدق ما توقعت فسرعان ما سمعت صيحة طويلة وظهر رجلا شرطة ضخام الأبدان حمر الوجوه . جس الشرطيان جيوبي وجسدي ولكن فات عليهم مسدسي . أنذرني رجلا الشرطة ألا أدعهما يقبضان علي ثانية إلا إذا كانت معي تذكرة للسفر وقدرت أن كل رجال السكة الحديد سيكونون حذرين مني بعد يوم الحادث ولذلك لم أحاول الحصول على عمل في السكة الحديد بعد ذلك .

وجدت نفسي في شوارع هارلم مرة أخرى بين كل أولئك المجرمين ولم يعد بإمكاني أن أرجع إلى بيع اللفافات لأني صرت معروفاً لدى شرطة مكافحة

المخدرات . كنت صعلوكاً حقًا ، بدون تعليم أو أية خبرة في عمل شريف ومع ذلك كنت أرى نفسي كشخص جريء وبارع يمكنه أن يعيش اعتماداً على دهائه ويستغل أية ضحية تمر في طريقه . كنت على استعداد للمخاطرة بأي شيء .

في هذه اللحظة وفي جيتو أي مدينة كبيرة يوجد عشرات الألوف من الشباب ممن هجروا الدراسة يتحايلون مثلي على الحياة بأية وسيلة – وحتما سيتدرجون وينغمسون أكثر وأكثر فيما هو أسوأ وأسوأ من الأعمال غير القانونية وغير الأخلاقية . المحتالون المحترفون لا يستطيعون الاسترخاء للتفكير فيما هم فيه وإلى أين سيقودهم ذلك فالعالم بالنسبة لهم غابة يعيشون كل ساعة فيها مدركين أنه عند أي استرخاء من جانبهم ، أي توقف فلن يتردد أي من الذئاب الجائعة والثعالب والنسور الأخرى في القضاء عليهم .

في الستة أو الثمانية أشهر التالية قمت بأول عملية نهب لي وبعض عمليات السطو . كانت عمليات صغيرة ودائماً في المدن المجاورة نجوت فيها من القبض عليَّ وأصبحت أحاكي كبار المجرمين وأستعد لهذه العمليات ببعض المخدرات القوية . بدأت بشم الكوكايين عملاً بنصيحة سامي . كذلك أصبحت أحمل معي مسدساً من عيار ٢٥ مليمتراً مصنوعاً من الحديد الأزرق كجزء من هندامي العادي أما في زي العمل فأحمل معي مسدساً من عيار ٣٢ أو ٣٨ مليمتراً . رأيت كيف ترتخي الوجوه وكيف تنفغر الأفواه حينما تواجه عيونهم فوهة البندقية . وعندما أحدثهم يسمعون صوتي وكأنه آت من بعيد ويفعلون أي شيء أطلبه .

بين العمليات كنت أظل مخدراً منعماً لتوتر الأعصاب . أحياناً وبدون مقدمات أرتحل فجأة طلباً للأمان ، في غرفة إيجارها الأسبوعي خمسة عشر أو عشرون دولاراً ودائماً في منطقتي المفضلة ، ما بين الجادة رقم ١٤٧ والجادة رقم ١٥٠ بالقرب من شوجرهيل .

في إحدى المرات كدنا أنا وسامي أن نقع في قبضة الشرطة أثناء إحدى العمليات . سمعنا ونحن ننسل بعد نهاية العملية ، أصوات نفير عربة الشرطة . بسرعة أبطأنا الخطو وعندما اقتربت العربة منا قفزنا إلى منتصف الشارع في طريقها ولوحنا لهم بأيدينا لنسألهم عن الاتجاه . وقفوا ظانين أننا سندلهم على الاتجاه الذي هرب نحوه المجرم ولكنهم عندما عرفوا غرضنا سبونا وساروا في طريقهم . لم يخطر ببال الرجال البيض أن بعض الزنوج يمكن أن يفكروا بخداعهم بتلك الطريقة .

كنت أرتدي أرقى أنواع السترات والتي أشتريها مسروقة بثلاثين أو خمسين دولار . كذلك وضعت قانوناً لشخصي ألا أجهد نفسي وراء أشياء فوق حاجتي وإذا سألت أي مجرم مجرب سيخبرك أن الطمع هو أقصر طريق للسجن . كنت أحفظ في

ذهني الأماكن والأوضاع الجاهزة للنهب ولا أقوم بأية عملية إلا حينما تضمحل حزمة النقود في جيبي . أحيانا أقامر بمبالغ كبيرة مع نفس عميل المراهنات الذي بدأت معه في جنة سمول . بعض المرات كنت أتهور وأضع ما يقرب من أربعين دولار في اليوم في رقمين فقط وأحلم بالخبطة الخرافية . لا أدري ماذا كنت سأفعل إذا ربحت عشرة أو اثنى عشر ألف دولار في مرة واحدة . طبعاً كنت أربح مبالغ بسيطة بين الفينة والأخرى . في مرات أخرى أتصل فجأة بصوفيا هاتفياً لتحضر لمدة يوم أو يومين .

بدأت أذهب إلى السينما بكثرة كذلك لم يفتني أي عرض موسيقى لأي واحد من أصدقائي العازفين سواء أكان ذلك في هارلم أو المسارح الكبيرة في وسط البلد أو في الجادة رقم ٥٢ .

ازداد ارتباطي مع ريجنالد في المرة التالية لرسو سفينته في نيويورك . كنا نتحدث عن أمور العائلة وتأسفنا لكون أخينا الأكبر ولفرد سوسة الكتب لم يجد الفرصة ليدرس في إحدى الجامعات الكبيرة حيث كان بإمكانه أن يحقق طموحه . أيضاً تبادلنا أفكاراً لم نتبادلها مع شخص ثالث . ريجنالد بهدوئه المعتاد كان مجنوناً بالموسيقى والموسيقيين وقد أدى كشفي له عن عالم الموسيقى المثير إلى أن تغادر سفينته يوماً بدونه . قضينا أوقاتاً ممتعة مع العازفين خلف المسرح عندما يأتون إلى مسرح روكسي أو باراماونت لأن أغلبهم كانوا يعرفونني من أيام بيع اللفافات للفرق الموسيقية .

ذهبت مع ريجنالد إلى قاعة السافوي ، مسرح أبولو ، مشرب فندق برادوك ، النوادي الليلية والحانات غير المشروعة وأي مكان يعزف فيه الزنوج . في إحداها احتضنت « سيدة اليوم » بيلي هوليداى ريجنالد ونادته « أخي الصغير». أمن ريجنالد على شعور عشرات الألوف من الزنوج بأن نهاية المطاف وقمة الفرق الموسيقية هي فرقة ليونل هامبتون . قدمت ريجنالد لعدد كبير من أعضاء الفرقة ولهامبتون نفسه ولزوجته ومديرة أعماله جلاديس ، إذ أنني كنت على معرفة وثيقة بهم . « هامب » من أطيب الناس على وجه البسيطة ومن يعرفه سيخبرك أنه قد يجود بشدة على أناس لا يعرف حتى أسمائهم . وبالرغم من نجاحه المادي الكبير حالياً وسابقاً سيفلس لو لم تكن جلاديس مديرة أعماله وهي من أذكى الناس الذين عرفتهم في حياتي . سيؤكد لك ذلك صاحب مسرح أبولو ، فرانك شيفان ، لو سألته . كان شيفان يتعاقد مع الفرق على مبلغ أسبوعي محدد إلا أن جلاديس في مرة اتفقت معه أن تعزف الفرقة مقابل نسبة معينة من الدخل وحينها ضوعف عدد العروض من أربعة إلى ثمانية في اليوم ، إن صحت روايتي ، فزاد ذلك من نفوذ هامبتون ودخله . جلاديس كانت تتحادث معي كثيراً وأعطتني مرة نصيحة جميلة إذ قالت : « اهدأ قليلاً يا أصهب .» كانت ذات فراسة ولعلها حدست خطورة طريقي .

من الأشياء التي أحببتها في ريجنالد أنه لم يكن يسألني أي سؤال حينما أقول له إنني ذاهب للعمل . وصرت بعد مجيء ريجنالد أقوم بعدد أكبر من العمليات كما أنني من أجل أن تكون له دار يعود إليها ، قمت بتأجير شقة لأول مرة في هارلم . كانت شقة من ثلاث غرف إيجارها الشهري مائة دولار تقع في السرداب الأمامي لبيت في الجادة رقم ١٤٧ بين شارعي كونفنت وسانت نيكولاس . في السرداب الخلفي الملاصق لنا كان يسكن واحد من أكبر تجار المخدرات في هارلم .

أصبحت الشقة مقر رئاستنا وبدأت تدريجياً أعرف ريجنالد بمكان كريول بيل والأماكن الأخرى التي تسهر حتى الصباح . وفي حوالي الثانية صباحاً عندما تكون نوادي البيض في وسط المدينة قد أغلقت أبوابها ، كنا أنا وريجنالد نقف أمام هذا النادي أو ذاك في هارلم وأنا أشرح لريجنالد ما يحدث . كانت عربات الليموزين السوداء تتهادى نحو هارلم بداخلها أولئك البيض الذين لا يشبعون من « الروح » الزنجية في النوادي ذات الشعبية عندهم والتي تختلف من مثل كوخ جيمي للفراخ ومكان ديكي ولز المشهورين إلى أماكن أخرى مثل ما يسمى بالنوادي الخاصة التي تظهر وتختفي بين يوم وليلة وحيث يؤخذ دولار « كرسوم عضوية » عند المدخل .

في داخل هذه الأماكن تتأذى العيون من الدخان ومقابل كل زنجي تجد أربعة بيضاً يحتسون الوسكي من فناجين القهوة ويأكلون الفراخ المشوية . كان الرجال البيض بوجوههم التي تسيل حمرة ونسائهم بالمكياج والعيون البراقة تتصادم أجسادهم من ضيق المحل ويضحكون بصوت عال ويصفقون للموسيقى . كثير من البيض كان يمشي مترنحاً نحو الزنوج – نحو النادل أو المالك أو الجالسين من الزبائن يشد على أيديهم ويحاول أن يحتضنهم قائلا: « إنك إنسان مثلي وأنا أريدك أن تعرف ذلك .» كانت الأماكن المشهورة تجتذب مشاهير البيض والسود على السواء والذين كانوا يتلاطفون مع بعضهم البعض . وكنت تجد حشداً كبيراً في كوخ جيمي أو في مكان ديكي ولز في الرابعة والنصف صباحاً حيث يقوم هيزل سكوت بالعزف على البيانو لتغني بيلي هولیداي بعض البلوز .

على ذكر كوخ جيمي فهو المكان الذي عملت فيه نادلاً بعد ذلك بمدة ولفترة بسيطة وفيه تعرفت على رد فوكس (كوميديان مشهور) الذي كان يغسل الأطباق هنالك ويجعل طاقم المطبخ يموت من الضحك .

كان لا بد أن نجد لريجنالد عملية ما يتكسب منها وفكرت كثيراً فيما هو مناسب له على أن تكون شيئاً آمناً وله بعد أن يتمرس أن يخاطر إذا أراد أن يجمع مالاً بسرعة . أدخلت ريجنالد في عملية بسيطة وغير معقدة استغللت فيها معرفتي بنفسية سكان الجيتو . ذهبنا إلى وسط البلد حيث دفع دولارين وحصل على رخصة

بائع متجول ثم أخذته إلى مركز توزيع أحد المصانع حيث اشترينا كمية من الملابس والأشياء التي تباع رخيصة لوجود خلل بسيط بها مثل القمصان ، الملابس الداخلية ، خواتم ساعات وأشياء عدة من النوع الذي يمكن أن يباع بسرعة .

من مراقبته لي وأنا أقوم بذلك في هارلم تعلم ريجنالد بسرعة كيف يدخل محال الحلاقة والكوافير والحانات ممثلاً دور الحذر وهو يدع الزبائن يختلسون النظر إلى « غنائمه». وبما أنه كان في هارلم دائماً لصوص يودون التخلص بسرعة من سلع جيدة النوع ومسروقة فقد كان كثير من الهارلميين على استعداد ليدفعوا ثمنا عالياً لبضاعة رديئة مشتراة شرعاً . لم يكن من الصعب التخلص بسرعة من حقيبة ملأى بالسلع وبيعها بضعف ثمنها بتلك الطريقة وإذا ما تعرض شرطي لريجنالد ففي جيبه رخصة تجارية وفاتورة شرعية . فقط على ريجنالد التأكد من أن لا أحد من الزبائن سيكتشف أن البضاعة غير مسروقة .

توقعت أن ريجنالد مثل كثير من الزنوج الذين أعرف ، سيجري خلف امرأة بيضاء . كنت أشير له إلى بعض النساء البيضاوات المتحررات وأقول له : إن أي زنجي له عقل يمكنه أن يجعل أياً منهن تقع في حبه . ألا أنني يجب أن أقول هذا عن ريجنالد : لم يكن يحب النساء البيضاوات . أذكر في المرة التي قابل فيها صوفيا أنه كان بارداً لدرجة أزعجتها وسرني ذلك نوعاً ما . صادق ريجنالد فتاة سوداء في أواخر عقدها الثالث ، « امرأة مستقرة » كما كنا نسميهن في تلك الأيام . كانت نادلة في مطعم راق في وسط البلد أعطت ريجنالد كل ما تملك فقد كانت سعيدة جداً أن تصادق شاباً صغيراً . أعني أنها كانت تشتري له الملابس وتعد له الأكل وتغسل ملابسه وكل ما يحتاج وكأنه طفل .

ذلك كان أحد أسباب ازدياد احترامي لأخي الأصغر إذ أظهر ريجنالد أكثر من مرة أن له وعياً أكبر من كثير من فتوات في ضعف عمره . كان عمره حينها ستة عشر عاماً لكن طوله كان ستة أقدام ومظهره وسلوكه يخفيان عمره الحقيقي .

في كل سنوات الحرب لم تكن العلاقات العنصرية في هارلم جيدة . كان التوتر يتفاقم كذلك علمت من القدامى أن هارلم تغيرت بعد الشغب الذي حدث في عام ١٩٣٥ حينما تسبب الزنوج في خسائر بمئات الملايين من الدولارات ساخطين على تجار هارلم البيض الذين لا يوظفون الزنوج في أعمالهم بينما يجمعون منهم الملايين .

في خلال الحرب أغلق مستر لاجارديا ، عمدة نيويورك ، قاعة السافوي رسميًّا وكان رأي الناس في هارلم أنه فعل ذلك ليمنع اختلاط الأجناس البيضاء والسوداء وكانوا يقولون : لا أحد أجبر هؤلاء الفتيات للحضور إلى أماكن الزنوج وتصدى

آدم كليتون باول (نائب هارلم في الكونجرس) لذلك القرار بشدة . كان آدم باول قبل ذلك قد جاهد ونجح في أن يفرض على أديسون (شركة كهرباء نيويورك) وشركة التلفونات أن يوظفوا سوداً ثم بعد ذلك ساعد في كسب معركة دمج الثكنات في الجيش والبحرية بدلاً من أن تكون مفصولة عنصرياً . لكن باول لم ينجح في كسب معركة السافوي الذي ظل مغلقاً لمدة طويلة . ذلك كان مثالاً آخر من « أفعال الشمال المتحرر » التي لم تعجب هارلم في روادها البيض .

أخيراً انتشرت إشاعة قوية أن الشرطة البيض أطلقوا الرصاص على جندي زنجي في فندق برادوك . كنت أسير في شارع سانت نيكولاس حينما رأيت أعدادا من الزنوج يصيحون ويجرون ناحية الجادة رقم ٢٥ وأذرع بعضهم ملأى بأشياء عديدة . أخبرني شورتي هندرسون ، ابن عم المايسترو المعروف ، بما حدث . كان الزنوج يحطمون واجهات المحال التجارية ويأخذون كل ما يستطيعون – أثاث ، طعام ، ملابس ، مجوهرات وكحول . في ظرف ساعة كان وكأن كل شرطة نيويورك في هارلم . كذلك كان العمدة لاجارديا وسكرتير حركة تقدم الملونين حينها ، مستر والتر وايت ، يركبان عربة مطافئ ويتجولان داعين الناس للهدوء وراجين منهم الذهاب إلى بيوتهم .

قبل فترة قصيرة قابلت شورتي هاندرسون في الشارع السابع وضحكنا ونحن نتذكر شخصاً ورث اسم « القدم اليسار » من ذلك الشغب لأنه في عجلته وهو يزاحم في متجر أحذية نسائية خطف خمسة أحذية فردية اتضح أن كلها كانت للقدم اليسار . ضحكنا أيضاً ونحن نتذكر الصيني صغير البدن الذي لم يمس أحد متجره لأن المشاغبين كانوا يموتون من الضحك وهم يرون العلامة التي وضعها في واجهة المتجر على عجل : لون أيضاً أنا .

بدأت الأمور تتأزم بعد ذلك الشغب وأصبحت الحياة صعبة لرواد حياة الليل وللذين يتكسبون من روادها البيض . وبعد أن كان المال يتدفق على هارلم في العشرينات أصبح مجرد قطرة بعد حوادث ١٩٣٥ والآن أوقف الشغب الأخير حتى تلك القطرة .

اليوم لا يتعدى عدد زوار هارلم من البيض العشرات وغالباً يأتون في عطلة نهاية الأسبوع فقط ، ليؤدوا رقصات التويست والفرَغ والواتوسي والرقصات المحبوبة السائدة في جنة سمول التي يملكها حاليًا لاعب كرة السلة العظيم ولْت (الطواله) تشامبرلين الذي يجذب الرواد بسمعته كرياضي أمريكي نظيف . أما الأغلبية العظمى من البيض فتخاف من الحضور لهارلم ولذلك ما يبرره . وحتى بالنسبة للزنوج تعتبر حياة الليل في هارلم قد انتهت ويذهب ميسورو الحال منهم لينفقوا أموالهم في مكان ما في وسط البلد في عالم « الاندماج » والنفاق وفي محلات كان محرماً عليهم دخولها في السابق وأي زنجي « مخبول » يدخلها كانت الشرطة تطرده . هذه الأيام لا يكاد أبيض غني ينتهي

من بناء ناطحة سحاب ويفتتحها إلا وقد سارع الزنوج المفتونون بالاندماج إلى حجز قاعة فيها « لمؤتمر» ما أو لحفلة راقصة بينما لايملك أي منهم عدة جملون أدوات . البيض الذين كانوا يأتون إلى هارلم يتحملون بعشرة المال ولكن ليس من مصلحة الزنوج أن يأخذوا أموالهم لينفقوها في محلات الرجل الأبيض .

تملكنا الرعب أنا وسامي مرة أثناء عملية سرقة . فقد كدنا أن يُقبض علينا . وتأزمت الأمور في هارلم إلى درجة اضطر معها المحتالون والنصابون إلى العمل الشريف وحتى بعض البغايا صرن يعملن خادمات في البيوت أو عاملات نظافة في المكاتب ليلاً . حتى تجارة الرقيق الأبيض كسدت . ذهبنا أنا وسامي إلى مكان يعتبر نهبه مستحيلاً ولكننا كنا ندرك أن أي مكان يشتهر بدقة حراسته سرعان ما يتراخى الحراس فيه مطمئنين ويصبح من أسهل الأماكن . ولكن ونحن في منتصف المهمة انقلب الحظ علينا ولامست سامي رصاصة وبالكاد تمكنا من الهرب . من حسن الحظ أن إصابة سامي كانت طفيفة . انفلتنا كل في اتجاه مختلف ففي ذلك السلامة .

قبل الفجر ذهبت إلى شقة سامي فوجدت معه آخر نسائه – واحدة من الجميلات العنيدات – زنجية أسبانية تبكي وتولول فوق سامي . مالت ناحيتي وهي تصرخ وتولول لعلمها أنني كنت معه ولكني أزحتها بعيداً مني ولأني لم أفهم لماذا لا يسكتها سامي ، أسكتها أنا وبطرف عيني رأيت سامي يتحرك لالتقاط مسدسه . ردة فعل سامي لضربي امرأته بتلك الطريقة بالرغم من صداقتنا الحميمة كان نقطة الضعف الوحيدة التي لاحظتها فيه . بدأت تلك المرأة تصرخ وقفزت نحوه لأنها كانت تعلم أنه عندما يشهر صديقك السلاح في وجهك فذلك يعني أنه فقد السيطرة على نفسه وأنه سيصوب . شغلت تلك المرأة سامي مدة كافية تمكنت فيها من الهرب وقد جرى سامي خلفي لمسافة مربع واحد .

تصالحنا بعد ذلك – على الأقل ظاهريًّا – لأن الأمور لا يمكن أن تعود كما كانت بين اثنين حاول أحدهما قتل الآخر . حدثتنا أنفسنا بعد ذلك أنه من الأفضل أن نهدئ الأمور لفترة وكان أسوأ ما في الأمر أن شخصاً رآنا وحتماً وزعت الشرطة منشوراً في تلك البلدة يحمل أوصافنا العامة.

لم أستطع تناسي تلك الحادثة حول امرأة سامي وبدأت أعتمد أكثر وأكثر على أخي ريجنالد على أساس أنه الشخص الوحيد في العالم الذي يمكنني أن أثق فيه ثقة تامة . ريجنالد كان كسولاً كما اكتشفت ، فقد ترك عمليته تلك كلية لكنني لم أهتم لذلك ، فله أن يكون كسولاً بقدر ما يريد إذا كان يستخدم عقله بطريقة صحيحة كما كان يفعل . كان قد ترك شقتي قبل ذلك ليسكن مع « امرأته المستقرة » تلك عالة عليها حينما يكون بالمدينة . علمته أيضاً أن يعمل لمدة في السكك الحديدية

حتى يتحصل على بطاقة هوية منها ويستعملها ليسافر مجاناً فريجنالد يحب التسفار . سافر ريجنالد عدة مرات وإلى كل مكان لزيارة أخواتنا وإخواننا الذين بدأوا يتبعثرون في مدن مختلفة . في بوسطن كان أقرب إلى ماري منه إلى إللا التي كانت أختي المفضلة فكل من ريجنالد وماري كانا من النوع الهادئ أما أنا وإللا فكنا من النوع المتحرك . كذلك قضى ريجنالد أوقاتاً جميلة مع شورتي في بوسطن .

بسبب سمعتي كان من السهل عليَّ أن أجد عملاً في مراهنات الأرقام والتي كانت المجال الوحيد في هارلم الذي لم تكسد تجارته . كان مخدمي وزوجته قد حصلا لتوهما على امتياز مصرفي لإجراء المراهنات في منطقة سكة حديد برونكس لمدة ستة أشهر من رجل عصابات أبيض وذلك كرد لجميل قام به مخدمي وزوجته نحو ذلك الأبيض وتسمى منطقة الامتياز تلك منطقة موتهافن فقد قسم رجال العصابات منطقة المراهنات إلى عدة أقسام ويُعطي امتياز كل قسم لشخص معين ولمدة محدودة . في السابق كانت زوجة مخدمي تعمل كسكرتيرة لدتش شولتز في الثلاثينيات عندما شق الأخير طريقه بالقوة للسيطرة على مجال المراهنات في هارلم . كانت مهمتي تتحصر في عبور جسر جورج واشنطن بالحافلة حيث يقابلني شخص آخر ويتسلم مني كيساً مدونة به الأرقام التي اختارها المراهنون . لم نكن نتبادل كلمة واحدة وبعد ذلك مباشرة كنت أعبر الشارع وأركب أول حافلة عائدة إلى هارلم . لم أتعرف على ذلك الشخص مطلقاً ولا أدري من كان يعود بالأرباح لمن يفوز من المراهنين فهذه أشياء لا يسأل عنها في دنيا العصابات .

زوجة مخدمي وجلاديس هامبتون هما أكثر امرأتين ممن عرفت في هارلم واحترمت حنكتهما التجارية . كانت زوجة مخدمي تحدثني عن أشياء مثيرة عندما تجد الوقت ويكون لديها ميل للحديث . كانت تحكي لي عن أيام دتش شولتز ، عن الصفقات التي كانت تعرف عنها وعن الرشاوي للمسئولين ابتداء من رجال الشرطة المستجدين ومحاميي الأساليب المشبوهة حتى المستويات العليا من الشرطة والسياسيين . كانت تدرك من تجربتها الشخصية أن الجريمة تزدهر بقدر ما يتعاون معها رجال الأمن والقانون . وأوضحت لي كيف أنه من تركيبة البلد الاقتصادية والاجتماعية والسياسية كان المجرم والقانون والسياسيون شركاء لا ينفصلون .

في ذلك الوقت غيرت عميل مراهناتي القديم الذي كنت أتعامل معه حينما كنت أعمل في جنة سمول والذي كره أن يفقد زبوناً مدمناً مثلي ولكنه تفهم رغبتي في التعامل مع عميل من المنطقة التي أعمل فيها . بدأت أضع مراهناتي مع آرشي الهندي الغربي الذي كما ذكرت قبلاً كان من أعنف زنوج هارلم وواحداً من رجال دتش شولتز الأشداء في هارلم سابقاً . قبل مجيئي إلى هارلم كان آرشي

الهندي الغربي قد قضى وقتاً مسجوناً في سجن سنج سنج . غير أن زوجة مخدمي لم تختره للعمل معها وفاء لذكرى رئيسها السابق دتش ، بل لأن آرشي كان يستمتع بذاكرة فوتوغرافية مما وضعه في النخبة بين عملاء المراهنات . لم يكن يدون رقماً وحتى في حالة الأرقام التوافقية كان يهز رأسه فقط . كان يحفظها كلها عن ظهر قلب ويكتبها للصراف عند تسليم النقود مما جعل منه عميلاً مثالياً لأن الشرطة لن تعثر عنده على دليل مكتوب بتلك الطريقة .

كثيراً ما فكرت في حالة عمال المراهنات مثل آرشي الهندي الغربي . لو كانوا في مجتمع آخر لاستفاد من مقدرتهم الحسابية الخارقة بطريقة أفضل . لكنهم كانوا سوداً .

على أية حال كان مجرد التعامل مع آرشي يعطي الزبون مركزاً اجتماعياً مميزاً لأنه كان يتعامل فقط مع كبار المراهنين كما كان التعامل معه يتطلب النزاهة والموقف المالي السليم أيضاً إذ أنه كان لا يمانع في التحصيل أسبوعيًّا بدلاً من يوميًّا . كان دائماً يحمل معه ألفي دولار من ماله الخاص وإذا أتاه زبون قائلاً إنه ربح مبلغاً معتدلاً من خمسين سنتاً أو دولار راهن به ، يخرج آرشي مبلغ الثلاثمائة أو ستمائة دولار المطلوبة من جيبه ليسلمه للزبون على أن يستردها هو من الصراف . كنت كل نهاية أسبوع أسدد حسابي له والذي يتراوح ما بين خمسين إلى مائة دولار إذا كنت فعلاً توسعت في ذلك الأسبوع . أما إذا فزت وقد حدث ذلك أكثر من مرة من مجموعة توافقية مثل ما أوضحت أعلاه – كان آرشي يدفع لي من عنده .

أخيراً انتهت فترة ستة أشهر امتياز مخدمي وزوجته والتي حقق منها ربحاً طيباً . كذلك استفاد عملاؤه الذين وجدوا عملاً بسرعة مع صرافين آخرين – أما أنا فاستمررت في العمل مع مخدمي وزوجته اللذين افتتحا مكاناً للقمار .

إحدى سيدات هارلم التي عرفتها لأنني كنت قد أسديت جميلاً لإحدى صديقاتها ، أدخلتني إلى جانب خاص من حياة الليل في هارلم ، جانب لم تؤثر عليه أحداث الشغب كثيراً ، فقط أوقفته مؤقتاً . ذلكم هو عالم الليل الذي فيه يقدم الزنوج في الغرف المغلقة تسلية للبيض الأغنياء تشبع انحرافاتهم الجنسية الغريبة .

البيض الذين عرفت كانوا يحبون التبسط مع الزنوج أمام الناس في النوادي والحانات غير المشروعة والتي تعمل حتى الصباح . في نفس الوقت لم يكن هؤلاء يحبون أن يعرف أحد أنهم يقربون من هارلم وقد أخافتهم حوادث الشغب بعض الشيء . في السابق لم يكن أحد يلحظ تسللهم داخلين خارجين من هارلم عندما كان يحضر إليها كثير من البيض الآخرين أيضاً ، أما الآن فسيكون وجودهم

واضحاً للعيان . كانوا كذلك يخافون غضب الزنوج الذين أثارتهم الحوادث الأخيرة . لذلك صارت تلك « المدام » حذرة لحماية عملها وعرضت عليَّ العمل كدليل .

لم يكن من السهل الحصول على هاتف أثناء الحرب فطلبت مني المدام أن أبقى بشقتي أثناء اليوم التالي ويبدو أنها تحدثت إلى شخص ما لأنه صار لدى هاتف قبل منتصف ظهر ذلك اليوم وخاطبتها هاتفياً من هاتفي الجديد ذي الرقم السري . كانت امرأة متخصصة في مجالها وإذا لم تستطع أو رفضت فتياتها أداء خدمة معينة لزبون ما ، كانت ترسلني إلى مكان آخر يكون عادة شقة في مكان ما في هارلم تُلبي تلك الطلبات الخاصة . كانت النقطة التي أقابل فيها الزبائن تقع أمام استور هوتيل في الركن الشمالي الغربي المزدحم دائماً بين شارع برودواي والجادة رقم ٤٥ . وأنا واقف أراقب سير الحركة تعلمت بسرعة أن أتعرف على العربة الخاصة أو عربة الأجرة أو الليموزين الذي يحمل الزبون حتى قبل أن تهدئ العربة من سرعتها وهي تقترب نحوي وفيها الوجوه البيضاء القلقة تحدق من وراء الزجاج باحثة عن الزنجي الطويل صاحب اللون البرونزي الذي يلبس بذلة داكنة اللون أو معطفاً وعلى ياقته زهرة بيضاء . وإذا كانوا في عربة خاصة ليس بها سائق كنت أركب خلف عجلة القيادة وأقودهم إلى المكان المحدد . أما إذا كانوا في عربة أجرة فكنت أركب معهم وأطلب من السائق أن يذهب إلى مسرح أبولو في هارلم ، لأن كثيراً من عربات الأجرة في نيويورك يقودها رجال المباحث ، ومن هناك نركب عربة أجرة أخرى سائقها زنجي وأعطيه العنوان الصحيح . وحالما تستقر المجموعة كنت أتصل بالمدام هاتفيًّا وكانت عادة تطلب مني أن أركب عربة أجرة وأرجع إلى نقطة التلاقي بين شارع برودواي والجادة ٤٥ لأكون هنالك في وقت محدد . كانت المواعيد دقيقة ونادراً ما انتظرت في ذلك الركن لأكثر من خمس دقائق كما أنني تعلمت أن أكون متحركاً لا ساكناً حتى لا أثير انتباه أي من رجال شرطة الآداب أو الشرطة الرسمية .

كنت أكسب مع البقشيش الجزيل مائة دولار في الليلة أحياناً وأنا أدل عشرة زبائن إلى المكان الذي يريدون ، ليشاهدوا أو يفعلوا أو يفعل لهم ما يشاءون . لم أكن أعرف هوية أغلب الزبائن ولكن أسماء من تعرفت عليهم منهم أو سمعت بأسمائهم قبلا تذكرني بفضيحة بروفيومو الشهيرة في انجلترا . عند ذكر البحث عن الغرائب والشذوذ نجد الإنجليز لا يفوقون أغنياء أمريكا ذوي النفوذ . رجال أثرياء ، من متوسطي العمر وأرذله ، رجال فاتوا مرحلة الشباب ، لم يكونوا طلاب جامعات بل آباؤهم من خريجي جامعات الآيفي المرموقة . كان بعضهم جدوداً فيما أظن . قادة مجتمع . سياسيين كباراً . عمالقة المال والصناعة . أصدقاء مهمين من بلدان أخرى . كبار رجال حكومة المدينة . كل أنواع المهنيين . نجوماً فنية لامعة – مشاهير

هوليود والمسرح – وبالطبع رجال العصابات .

كانت هارلم في نظرهم مخبأ الرذيلة وكنز الجسد . تسللوا إلى السود المحرَّمين عليهم ونزعوا أقنعة الطهارة والأهمية والاحترام التي يرتدون في العالم الأبيض . أولئك أناس بمقدرتهم إنفاق مبالغ كبيرة من المال من أجل قضاء ساعتين ، ثلاث أو أربع لإشباع شهواتهم الغريبة . ولكن في هذا العالم السفلي الذي يختلط فيه الأبيض والأسود لا يهتم أحد بإدانة الزبائن . لهم ما يسمون ويتخيلون ويصفون ، ما يفعلون وما يطلبون أن يفعل لهم طالما كانوا يدفعون .

في فضيحة بروفيومو في إنجلترا روت صديقة كريستين كيلر كيف أن بعض زوارها كانوا يطلبون أن يجلدوا بالسياط . وإحدى أكثر رحلات العمل التي كنت أقوم بها كانت إلى عنوان خاص بعيد عن بيت المدام ، شقة تسكنها فتاة زنجية ضخمة ، في سواد الفحم وقوة الثور ولها عضلات عمال الموانئ . الطريف في الموضوع أن زوارها كانوا عادة أكبر الرجال البيض سنًّا ، في الستينات من عمرهم وربما بعضهم في السبعينات ، وكانوا لا يكادون يستجمعون قواهم من الضرب بالسياط إلا وتراهم بعد فترة قصيرة ينتظرونني في برودواي وشارع ٤٥ كي آخذهم مرة أخرى ليجثوا على ركبهم يصرخون طالبين الرحمة تحت سوط تلك الفتاة السوداء. بعضهم كان يدفع لي كي أحضر وأتفرج عليهم يُضربون . وكانت تلك الفتاة تدهن جسدها الأمازوني لتبدو أكثر سواداً ولمعاناً – كذلك كانت تستعمل سياطاً مجدلة تدمي الجسد ومن كل نوع كانت تكسب مبلغاً محترماً من هؤلاء البيض.

لن أحكي كل ما شاهدت ولكني أقول : إنني كنت وأنا في السجن أتساءل عن تفسير علم النفس لكل ذلك . كل أولئك الرجال كانوا يحتلون مناصب هامة ، يوجهون ويؤثرون ويمارسون النفوذ فوق الآخرين .

وأنا في السجن بعد ذلك بزمن فكرت في شيء آخر . فكرت في كيف أن كل أولئك البيض أوضحوا تفضيلهم للسواد بجلاء وكانوا يصرون على السود : « أكثر سواداً أفضل مذاقاً » . لعلمها بذلك لم تكن المدام تحتفظ إلا بأكثر النساء الراغبات سواداً .

في كل سنواتي في هارلم لم أر رجلاً أبيض يقرب بغيا بيضاء مع أنهن كن موجودات في بعض الأماكن المتخصصة . كن يشتركن في تلبية أكثر الطلبات وروداً : أسود وسيم مع امرأة بيضاء . هل كان الرجل الأبيض يود بذلك أن يعيش أعمق مخاوفه ؟ في بعض المرات كانوا يحضرون معهم نساءهم البيض لمجرد التفرج على ذلك ولم أقتد امرأة بيضاء إلا وأحضرت خصيصاً لذلك الغرض أو تكون قد وصلتها بي سحاقية

بيضاء أعرفها كان لها تخصص آخر.

كانت هذه المدام السحاقية امرأة بيضاء جميلة ذات لغة مبتذلة عندها فريق من الرجال السود كانت ترسلهم عند الطلب لنساء بيض ثريات . شاهدت هذه المدام عدة مرات من قبل في هارلم ومعها صديقتها الشقراء وهن يحتسين الخمر ويتحدثن ودائماً يصحبهن شباب زنوج ومن يجهل أمرها لن يخمن أنها كانت تجندهم . في احدى المرات أعطيتها هي وصديقتها بعض اللفافات وأخبرتني أنها أحسن نوع جربته . كن يسكن في فندق في وسط البلد فصرن بعد ذلك يدعونني فأذهب حاملاً لهن بعض اللفافات وأبقى معهن بعض الوقت نتجاذب أطراف الحديث.

أخبرتني تلك المدام كيف أنها دخلت ذلك المجال بالصدفة . بصفتها من مرتادي هارلم تعرفت على بعض الزنوج الذين يفضلون النساء البيض وتطور دورها من نوع الحديث الذي كانت تسمعه من النساء البيض ميسورات الحال الضجرات اللائي تقابلهن في مكان عملها في محل تجميل في شرق مدينة نيويورك . كانت عندما تسمع شكوى النساء من عجز أزواجهن تحدثهن عما سمعته عن الزنوج وعندما رأت كيف استثار ذلك الحديث بعضهن ، نظمت لهن مقابلات في شقتها مع بعض الزنوج الذين تعرفت إليهم في هارلم .

في نهاية الأمر استأجرت ثلاث شقق في منتصف مانهاتن في نيويورك حيث تتم المقابلات بمواعيد مسبقة . وبدأت بعض زبوناتها يزكين خدماتها لصديقاتهن مما اضطرت معه لترك العمل في صالون التجميل وأنشأت مكتباً لخدمات السعاة كواجهة بينما كل عملها يتم بالهاتف .

اكتشفت أيضاً التفضيل اللوني فأنا مثلاً لا يمكن أن تقبلني للعمل معها . كانت تقول لي ضاحكة أن لوني فاتح أكثر من اللازم وتخبرني أن زبوناتها يصررن على الأسود وأحياناً يقلن « أسود حقيقي » لا زنجيًّا أسمر أو أصهب . خطرت للمدام فكرة خدمات السعاة لأن بعض الزبونات كن يوددن أن يحضر الزنوج لهن في المنزل حيث يتم تنظيم ذلك بدقة بواسطة الهاتف . كن يسكن في أحياء بيوتها من الطوب أو بها شقق في عمارات خاصة يقف أمام كل منها حارس بزيه الرسمي وكأنه أدميرال في البحرية . المجتمع الأبيض لا يتعرض لأي زنجي في دور خادم وحينما يحضر مندوب المدام يتصل الحارس هاتفيًّا بالسيدة التي تقول له : « أوه ، نعم ، أرسله فوق حالاً يا جيمس.» عندها يقوم عامل المصعد بتوصيل الساعي الزنجي بسرعة حتى يصل ويسلم الرسالة التي طلبتها السيدة الثرية في مانهاتن .

السخرية في الموضوع هي أن أولئك السيدات البيض لم يكن يحملن أي احترام لأولئك الزنوج ولم يكن لدى الرجال البيض أي احترام للنساء السود اللائي

يعاشروهن – أعرف ذلك من شعوري نحو صوفيا التي كانت مازالت تزورني في نيويورك حينما أطلب منها ذلك .

لابد أن الفتى الهندي الغربي صديق كريستين كيلر ، لكي جوردون ، وأصدقاءه كان لديهم نفس الشعور . بعد أن يأخذ قادة إنجلترا دورهم مع أولئك الفتيات البيض ، كانت الفتيات يذهبن إلى أصدقائهن الزنوج إرضاءاً لرغبتهن وليدخنوا بعض اللفافات وليسخروا من أعظم رجال إنجلترا كبلهاء مجانين . ليس لدي أدنى شك أن لكي جوردون يعرف هوية « الرجل المقنع » في تلك الحادثة وأكثر وإذا تكلم بكل ما أخبرته به تلك الفتيات لحدثت فضيحة أخرى في إنجلترا .

لا يختلف ذلك كثيراً عما يحدث في بعض دوائر أمريكا الراقية . لقد رأيتهم بعيني وسمعتهم بأذني كل ليلة قبل عشرين عاماً .

يتحدث الرجل الأبيض المنافق عن أخلاقيات الزنوج « الوضيعة » ولكن من هو صاحب أحط أخلاق في العالم إن لم يكن الرجل الأبيض ؟ ليس ذلك فحسب بل رجال الطبقة العليا من البيض . قرأنا حديثاً في الصحف عن مجموعة من ربات البيوت في إحدى ضواحي مدينة نيويورك كن يدرن تنظيماً لاحتراف البغاء . في بعض الحالات كان أولئك الزوجات يتعهرن بمعرفة وربما بمساعدة أزواجهن الذين يبقون في البيت يعتنون بالأطفال . أما عن زبائنهن ، فعلى حسب رواية إحدى صحف نيويورك كانوا : « قبض على بضع ستة عشر دفتراً بأسماء مائتي زبون من أهم الشخصيات الاجتماعية والسياسية والمالية في هجوم يوم الجمعة على المكان .»

قرأت كذلك حديثاً عن مجموعة من الأزواج الشباب الذين كانوا يجتمعون ويرمي الأزواج بمفاتيح منازلهم في قبعة ثم يسحب كل منهم مفتاحاً وهو مغمض العينين ويقضي الليلة مع صاحبة المفتاح . لم أسمع مطلقاً بشيء مثل ذلك يمارسه الزنوج ولا حتى الزنوج الذين يعيشون في فقر مدقع في الجيتو والحارات والأزقة .

في فجر أحد الأيام في هارلم هجم زنجي طويل فاتح اللون مقنع الوجه على مدير حانة زنجي وهو يحصي حصيلة اليوم من النقود مع السائق الزنجي . ومثل ما نجد في كثير من الحانات في هارلم كان المدير الزنجي مجرد واجهة والمالك الحقيقي يهودي . الحصول على رخصة حانة في ذلك الوقت كان يتطلب معرفة مسئول في هيئة التحكم في الكحول في الولاية ، ويهودي يعمل مع يهودي لهما فيما يبدو أحسن الصلات أما الزنوج فلا . استأجر مدير الحانة الزنجي بعض الزنوج الصعاليك ليتعقبوا أثر اللص الذي كانت أوصافه تجعلني من المشتبه فيهم وكان أن خبطوا على شقتي صباح نفس اليوم .

أخبرتهم أن ليس لي أية معرفة بالموضوع وأنه ليست لي أية صلة بما كانوا يتكلمون عنه وأنني في فجر ذلك اليوم كنت مشغولاً بعملي والذي ما أن انتهيت منه إلا وذهبت للنوم في شقتي . كان الأوغاد غير متأكدين ويحاولون إرهابي لأعترف إن كنت المجرم الحقيقي . ما أنقذني هو أنه كانت لديهم أسماء أخرى مشتبه فيها .

ارتديت ملابسي وركبت عربة أجرة وأيقظت شخصين من النوم ، المدام ثم سامي . كانت لدي نقود كافية لكن المدام أعطتني نقوداً إضافية وقلت لسامي أنني ذاهب لزيارة أخي فلبرت في ميشجان. أعطيت عنواني لسامي ليتصل بي عندما تنجلي الأمور . تلك كانت رحلتي إلى ميشجان في الشتاء التي وضعت فيها مادة الكونجولين على رأسي قبل أن أكتشف أن الماء في الصنبور كان متجمداً ولأمنع المحلول من أن يحرق رأسي اضطررت أن أدخل رأسي في مقعد المرحاض وأجرى الماء لأشطف شعري .

مر عليّ أسبوع في صقيع ميشجان قبل أن يهاتفني سامي تلفونيًّا ويخبرني أن زنجيًا آخر ذا بشرة حمراء اعترف بارتكابه تلك الجريمة . مكنني ذلك من العودة لهارلم إلا أنني لم أعد لعمل الدليل . لا أذكر السبب الذي منعني من ذلك ولابد أنني شعرت أن عليّ الابتعاد عن الإجرام لمدة . كنت أتعاطى المخدرات مع الأصدقاء وأذهب إلى النوادي الليلية والمهم أنني لم أعد للعمل مع تلك المدام مطلقاً . في حوالي تلك الأيام بدأت أمرض كثيراً وكنت أصاب بنزلات برد بكثرة . أصبح ذلك شيئاً مزعجاً وأصبحت أعطس وأمسح أنفي الراشحة طول الوقت كما أنني كنت مخدراً طوال الوقت وأعيش في عالم الأحلام . أحياناً كنت أدخن الأفيون مع بعض الأصدقاء البيض، ممثلين من وسط البلد . كذلك دخنت كمية من لفافات القنب أكثر من أي وقت مضى . لم أكن أدخن لفافات عادية في حجم عود الكبريت بل وصلت مرحلة متقدمة أدخن فيها لفافات وزن الواحدة منها أوقية .

بعد ذلك بمدة بدأت أعمل عند يهودي في وسط البلد يدعى هايمي وقد أحبني ذلك الرجل بسبب ما فعلته من أجله . كان يشتري المطاعم الخربة والحانات المهجورة ويعيد ترميمها ثم يعمل حفل افتتاح كبير بالإعلام والأضواء . كان الازدحام واللافتة الكبيرة « تحت إدارة جديدة » يجذبان الناس والمضاربين الذين عادة ما يكونون يهوداً آخرين يبحثون عن مجال لاستثمار أموالهم . أحيانا كان هايمي يعيد بيع المحل في ظرف أسبوع بسعر مجز .

أحبني هايمي جدًّا وأحببته . كان يحب الكلام وأحب الاستماع وكان أغلب حديثه عن اليهود والزنوج . كذلك كان اليهود الذين يبدلون أسماءهم بأسماء أنجلوساكسونية موضوع بغضه المفضل . كان يبصق ويلوي فمه احتقاراً وهو يسب من

قال أنهم فعلوا ذلك ومن بينهم أسماء مشهورة لا يخطر ببال أحد أنهم يهود .

« ردْ ، أنا يهودي وأنت أسود وهؤلاء المسيحيون البيض لا يحبون أيًّا منا وإذا لم يكن اليهودي أشطر من المسيحي لعومل أسوأ من المعاملة التي يلقاها أهلوك. »

دفع لي هايمي مرتباً جيداً وأنا أعمل معه كان يصل أحياناً مائتي وثلاثمائة في الأسبوع ومن أجله كنت على استعداد لفعل أي شيء وقد أديت له فعلاً خدمات مختلفة . لكن عملي الرئيسي كان ترحيل الخمور الممنوعة التي يمد بها هايمي الحانات المرممة التي باعها للآخرين . كنت أركب شاحنة مع شخص آخر ونذهب إلى لونج آيلاند حيث كان يوجد مصنع للويسكي . كنا نأخذ صناديق زجاج الويسكي الفارغ التي يحتفظ له بها أصحاب الحانات التي نمدها ونشتري صفائح كبيرة ملأى بالوسكي ثم نعبئه في الزجاج الفارغ الذي يحمل علامات تجارية معروفة وبعد ذلك نسلمها طبقاً لأوامره لنفس تلك الحانات .

كثير من الناس يزعمون أنهم لا يتعاطون إلا أسماء معينة في حين أن أغلبهم لا يحرز الفرق ما بين الخمر المعتقة وتلك التي عمرها أسبوع واحد من نوع لونج آيلاند . وأغلب شاربي الوسكي العاديين لا يستطيعون التمييز بين الأنواع المختلفة . كنت أنا أيضاً وبمعرفة هايمي وكعمل جانبي أقوم بمد بعض حانات هارلم المشهورة وغيرالمشهورة وغير المشروعة بأنواع أقل جودة من الخمور المهربة .

ولكن في نهاية أحد الأسابيع في هارلم وقعت حادثة ذات صلة بهيئة التحكم في الخمور في الولاية . من أكبر الفضائح في ولاية نيويورك كان فضح الرشوة والفساد في هيئة التحكم في الخمور. ويبدو أن أحداً من عصابتنا حاول خداع أحد كبار المسئولين وانتشرت إشاعة مفادها أن شخصاً من المجموعة التي تضم هايمي قد وشى بالمجموعة . في أحد الأيام لم يظهر هايمي في المكان الذي اتفقت معه على مقابلته فيه ولم أسمع عنه مرة أخرى لكنني سمعت أنهم رموه في البحر علماً بأنه لا يجيد السباحة .

في البرونكس ، أحد أحياء نيويورك ، شهر زنجي مسدسه في وجه اثنين من رجال العصابات الإيطاليين أثناء لعب القمار وانتشر ذلك الخبر بسرعة . من فعل ذلك بالإضافة إلى كونه أبله ، كان زنجياً طويلاً ذا لون فاتح وضع على وجهه جوارب نسائية شفافة . كنت دائماً أسأل نفسي هل عُرف من الفاعل أم اعترف رجل برئ تحت التهديد والضرب إلا أن المهم هو أن التهم التي حامت حولي سابقاً بُعثت من جديد . في احدى المرات وأنا خارج من مشرب فات مان قرب ملاعب البولو دخلت في كشك التلفون – الجميع حينها في المشرب وفي كل هارلم كانوا يشربون نخب

جاكي روبنسون الذي استوعبه برانش ريكي ، مالك فريق بروكلين دودجرز ، ليلعب البيسبول في الدرجة الأولى ويتدرب في مزرعة الدودجرز في مونتريال – مما يعني أن الوقت كان خريف ١٩٤٥ .

في أول ظهر ذلك اليوم حصلت من آرشي الهندي الغربي على مستحقاتي من خمسين سنتاً راهنت بها ودفع لي ثلاثمائة دولار من جيبه رأساً . وذهبت لأتصل من الهاتف بجين باركز ، إحدى أجمل نساء هارلم في ذلك الوقت ، والتي كانت قد غنت مرة مع المطربة سارة فون في فرقة الشرائط الزرقاء وهي فرقة رباعية كانت تغني مع إيرل هاينز . كنت قد عقدت اتفاقاً مع جين منذ مدة طويلة فحواه أنه عند فوز أي منا في المراهنات ، نخرج كلانا ونحتفل وقد دعتني مرتين منذ آخر مرة دعوتها فيها . ضحكنا في التلفون ونحن سعداء بفوزي وبأنني سأكرمها بأمسية في مكان راق واتفقنا أن نتقابل في أحد النوادي الليلية في الجادة رقم ٥٤ لتستمع إلى بيلي هوليداي وهي تغني إذ كانت عادت لتوها من جولة إلى نيويورك .

وضعت السماعة عندما رأيت شخصين نحيلين تبدو القسوة في وجهيهما يحدقان فيَّ من خلال الزجاج وأنا داخل الكشك . لم أحتاج إلى وحي لا أعرف ماذا يريدان بي . ولم أكن أحمل مسدساً وكل ما في جيبي علبة سكائر حديدية . حاولت خداعهم بإدخال يدي في جيبي بتلصص وهدوء فما كان من أحدهما إلا أن فتح الباب بسرعة . كانا أصحاب بشرة داكنة ومن أصل إيطالي . ويدي مازالت في جيبي .

« تعال خارجاً وسنعقد محكمة.» هذا ما قاله أحدهما .

في تلك اللحظة مر شرطي خارجاً من باب المشرب الأمامي وهرب الصعلوكان وفي حياتي لم أبتهج لرؤية شرطي مثلما ابتهجت تلك المرة . كنت ما زلت أرتجف حينما وصلت إلى شقة صديقي سامي القواد الذي أخبرني أن آرشي الهندي الغربي كان يبحث عني قبل مدة قليلة .

أحياناً وأنا أذكر تلك الأشياء لا أدري كيف نجوت من كل ذلك ومازلت حياً وذلك شعوري الحقيقي . وكما يقولون عناية الله تحفظ البلهاء والأطفال . كثيراً ما قلت لنفسي بعد ذلك أن الله كان يراقبني من فوق . خلال كل تلك السنوات كنت ميتاً حقيقة ، موتاً معنويًّا ، فقط لم أكن أدرك ذلك .

المهم ، شممنا أنا وسامي بعض الكوكايين قتلاً للوقت إلى أن حان ميعادي مع جين باركز لنذهب ولنستمع إلى سيدة اليوم ، بيلي هوليداى . لم أهتم كثيراً بما قاله سامي عن آرشي الهندي الغربي وبحثه عني .... على الأقل لم أهتم بعد .